الحسون

حادثة واقعية

فطر المرء نزوعاً إلى الشر ، ميالا الى الانانية ، جاحداً للعرف ، لا يطوى جوانحه الا على نكران الجيل ، وغمط كل يد تسدى اليه ، مهما جنى من ورائها من المنافع والمزايا .

بخلاف الحيوان الأعجم الذى مع تجرده من نباهة العقل ، واستنارة البصيرة يقدر مايقدم اليه من الصنيع، فيحفظ المعروف ، و يعترف بالجميل ، و يسعى جهده ليبدى ماتكنه غريزته من الأمانة والوفاء نحو المسدى ، سواء بتعلقه به ، اوبالتقرب منه ، والتوددالیه .

جلس الاب غنطوس على عتبة غرفته بعد خروج المحضر يفكر فى حالته ، والدمع يجول فى عينيه ، فاقبلت عليه جارته مريم ولم تكن تقل عنه بؤساً وشقاء ، ولما ابصرت ورقة الحجز بين أصابعه المرتجفة غلب عليها الحزن فطفقت تكفكف دمعها وتواسيه وتخفف عنه .

وكان شديد الافتقار لمن يشاطره الشجن ، لخمود همته ، وفتور عزيمته ، فنال التأسى من قلبه وسرى عنه بعض الشيء ، فرفع رأسه بحزن وقال بصوت يتهدج من الأسى:

سيبيعون عما قريب كل محتويات غرفتى ، ويطردونى منها فاصبح بلا مأوى فى هذا البرد القارص ، برد لبنان الذى يهرء الاطراف و يثلج الأجسام

فدمعت عينا مريم وقالت

كل أصحاب الاملاك على شاكلة واحدة فهم قساة القلوب غلاظ الأكباد متحجرو الافئدة لايعرفون شفقة ولا رحمة.

وكان الأب غنطوس سليم الطوية ذا نفس وديعة مستسلمة لا تستفزها نزعات ثورية ضد النظم الاجتماعية فقد ألف المصائب والمكاره منذ الصغر حتى أيقن بان حظه من هذه الحياة التعاسة والشقاء ، وحظ الغير السعادة والهناء فنظر اليها بكآبة وقال :

لا تتحاملى على أصحاب الأملاك أيتها الجارة العزيزة . فهم انما يطالبون بحقهم فقد مضى زمن لم انقد صاحب الغرفة فيه شيئا من إيجارها ، لان المرض أقعدنى عن العمل مدة طويلة ، ولما تماثلت صحتى وجاوزت طور الضعف سعيت لاحصل

على عمل فسدت فى وجهى سبل الرزق ، لانى عجوز لاعزم لى ولاقوة ولا جلد على احتمال أرزاء الاعمال ومشاقها لا سيما وإنى كما ترين ذو عاهة لاتساعدنى على ذلك ولاتروق فى أعين الغير وهى هذه الرجل الخشبية .

فقالت له تلك الجارة الشفيقة :

لم لاتذهب الى الامير شهاب الذى أنقذت ابنه من الموت دهسا تحت عجلات القطار وأصبت من جرائه بفقد رجلك فتطلعه على حالتك وتستمد معونته ولست بطالب منه مشاطرته فى ماله الجم بل انك تقنع بفضلات ماعنده مكافأة لك على حفظك حياة ولده الوحيد ؟

فهز المسكين رأسه يأسا وقنوطا وأجاب ؟

قد تل الانسان ما أنكره للجميل ، وأجحده للمعروف فسرعان مانسى الامير دينه وسرعان ماينقلب المحسن اليه على المحسن ويقابله بما يكره . كأنه له عدو ينبغى قتاله ولا تستحب مصافاته. فلما هد كاهلى المرض ، وركبنى الدين . ذهبت اليه لابسط له حالى وأطلعه على عوزى ولم أكن قد قابلته قبل ذلك غير مرة واحدة عندما أنقذت ابنه فتلقانى بازورار ، وخاطبنى بكبر وخيلاء ، وعند ما اطلع على مطلبى صرفنى بفظاظة مهددا إياى بالطرد اذا تخطيت ثانية عتبة قصره .

ومما يدعوا الى الاسى أن ابنه الذى أنقذته من أشنع ميتة ، قابلنى بهزء وسخرية ، وشيعنى بكل ضروب التهكم لعرجى وفقرى و رثاثة ثيابى ، وأخذ يهمس فى أذن خطيبته ويضحكان سوياً .

— وكم أعطاك عندما أنقذت ابنه ؟

— عشرة جنيهات لقاء الانقاذ وفقد رجلى !

— وارحمتاه لك أيها الصديق ! فقد دفعت ثمن مروءتك غاليا . فاجاب وقد لمعت عيناه ببريق المروءة والشهامة :

لقد قمت بما يجب على كل ذى شرف فعله عندما يرى أخاه فى الانسانية مشرفا على الهلاك .

— ولكنهما لم يقوما ببعض مايحتمه عليهما عرفان الجميل والشكر على المعروف .

— إنهما غنيان بالمال ، فقيران بالعواطف الشريفة .

— وماذا ستفعل الآن ؟

— لاشيء سوى أن آخذ حسوني ، وهو سلوتي الوحيدة كما تعرفين، وأضرب في هضاب الأرض وشعابها ، هاربا من جور الانسان وظلمه .

— ليكن الله في عونك أيها الاخ .

ثم ودعته وانصرفت . فنهض من مكانه متثاقلا ، وسار وهو يدلف على رجله الخشبية حتى دخل غرفته التي لم تكن تحوى غير أثاث عتيق واطمار بالية وقفص فيه حسون جميل المنظر بالوانه المتعددة . براق العينين،فاقترب منه وفتح له الباب وأخرجه ووضعه في كفه وأخذ يمرر يده بلطف وحنو على ريشه الاملس الناعم ، ثم أخرج له من جيبه فتات خبز وقربها منه ، فشرع يلتقطها بمنقاره محدثا زقزقة خفيفة ، ولما شبع مسح منقاره من ناحيتيه باصبع الاب غنطوس،ووقف يغرد وصاحبه يستمع له وقلبه يرقص طربا

ولما فرغ من تغريده تأمله الاب غنطوس مليا باعجاب شديد ، ثم أدناه من وجهه وخاطبه قائلا .

حسوني العزيز ! لم يبق لي مما في هذه الغرفة غيرك ، فانت سلوتي الوحيدة وسميري في وحدتي ومؤنسي في وحشتي،فسآخذك معي وأسير بعيدا عن مظالم البشر الذين لا يرعون عهدا ولا يحفظون ميثاقا ، فنأوى الى الغابات والاحراش فنتفيأ ظلال الاشجار الوارفة، ونأكل من ثمارها ونرتوي من مياه الينابيع العذبة .. قل ياحسوني ، أتريد الذهاب معي ؟

فكان الحسون يقفز على أصابعه مزقزقا :

كوى . كوى

فاستلى الاب غنطوس كلامه قائلا :

أراك راضيا بعشرتي تأبى مفارقتي بعد ما تآلفنا طويلا لان قلبك الرفيق يحمل بين دفتيه أرق العواطف للاب غنطوس البائس الذي لا يشعر بالوحدة اذا كنت معه

ثم قبله قبلات أشبه بهمس النسيم لخفتها ورقتها وارجعه الى قفصه وعيناه تدمعان حنواً

ولا غرو فقد كان يحمل بين جوانحه لهذا الطائر الصغير كل مشاعر الحب والشغف لانه الكائن الوحيد الذي لم يتناول الاب غنطوس باذى بل هو الوحيد الذي قاسمه بؤسه وشقاءه فكان تغريده وميض رجاء ينير دياجير حياته الشديدة الحلوكة .

٥٥٥

مرت الايام سراعا ، وحان يوم بيع أثاث الاب غنطوس فاقبل الرجال المكلفون بذلك وتلاهم جمع من المتفرجين والمشترين. ولو انه لا يوجد مايثير اهتمامهم ولكن التطفل والتلذذ برؤية أذى الغير غريزتان في الانسان لا يتسنى له الاقلاع عنهما . هذان

هما الدافعان لهؤلاء النفر الى الحضور لمشاهدة الخراب المحيق باخيهما فى الانسانية دون أن تأخذهم عليه شفقة أو تهزهم عاطفة حنان .

انزوى الاب غنطوس فى احد أركان الغرفة ، يتطلع الى الوافدين بنظرات تائهة لاتستقر على شيء ، والحسرة تقطع احشاءه حتى اذا قام البيع على قدم وساق ، نهض منفطر القلب يريد الخروج اذ لم يعد له بقاء هنالك ، وتطلع بحرقة الى حوائجه وهى تنتقل من يد الى اخرى ثم حمل بيمينه قفص حسونه العزيز عليه ، وسار يدلف مستندا على عكازه حتى اذا اوشك أن يخرج رآه أحدهم فصاح : الى أين أنت ذاهب ؟

فانذهل الاب غنطوس من هذا السؤال والتفت الى السائل وقال له :

ماذا تريد منى ؟

فاجابه بتهكم :

لاأريد منك شيئاً . فاترك القفص الذى بيدك وأغرب عن وجهنا

وكان الاب غنطوس يعرف بان بنى الانسان جديرون بكل ظلم وعسف ، ولكنه لم يكن يدرى فى خلده أنه سيبلغ بهم الجور حداً يفرقون به بينه وبين عصفوره المحبوب ولذا وقع هذا الامر عليه وقعا شديداً كاد يفقده رشده فوقف برهة جامداً لايستطيع حراكاً ثم خذلته قواه فانسل القفص من يده وهوى الى الأرض .

لكنه مالبث أن ثاب الى صوابه فطلب منهم أن يسمحوا له بتوديع عصفوره الوداع الاخير ، ثم أخرجه وأخذ يقبله قبلات حارة والدموع تنهمر من عينيه .

ولما فكر كيف انهم سيحرمونه من سلوته الوحيدة فى حياته ، غلا صدره ، وثار ثائره وهم بمناجزتهم العداء ، دفاعا عن حسونه لكنه تمالك نفسه لاستوثاقه من ضعفه أزاء قوتهم الغاشمة ، غير انه أحب قبل مبارحته غرفته أن ينقذ عصفوره من رق الاستعباد لئلا يسام الذل عند من تصل اليه أيديهم فقبله قبلة طويلة أودع فيها كل مايكنه صدره من حب وحنان وقذف به فى الفضاء صائحا :

اذهب أيها الحبيب يا آخر رجاء لى فى دنياى هذه . اذهب وتمتع بنعمة الحرية فقد طال حبسك واشتد جور الانسان عليك .

وظل واقفا يتبعه بنظره وهو يتقلب فى الفضاء حتى غاب عن أبصاره فسالت دموعه

على خديه الغائرين و تغلغلت فى لحيته البيضاء فمسحها بيده وتحامل على نفسه وسار متوكئاً على عكازه الى حيث لايدرى.

وكان البرد قارصا والثلج قد كسى أديم الارض بحلة بيضاء وجبال لبنان أشبه بعروس بثيابها الناصعة ، فداوم الاب غطوس سيره دون أن يقصد جهة معينة والحزن يكاد يصرعه لان عبء الشقاء انضم الى عبء الوحدة فاناخا بكلكليهما على جسمه الناحل الهزيل.

سار على غير هدى ، والبرد يهرأ أطرافه و يتسلل الى جسده من خلال أطماره البالية وهو يقضقض من شدة وقعه، و يسخط على نفسه وعلى بنى البشر لظلمهم وجورهم ثم رفع رأسه وتطلع الى الجهة التى غاب منها حسونه وتمتم :

لقد ذهب الى حيث لاأدرى ، وتركنى وحيداً شريداً فهل الحيوان سيكون أشد حفظا للجميل من الانسان ؟

ولم يكد يتم كلمته حتى طرق اذنيه حفيف أجنحة، أشبه بمر النسيم ، وشعر بجسم خفيف قد استقر على كتفه، وطرق اذنيه همس لطيف يردد كلمة «كوى. كوى» كأنه يقول له ها أنذا !

فالتفت الاب جاك فابصر حسونه قد عاد اليه،فكاد يطير من شدة الفرح، فقبض عليه بكلتا يديه برفق زائد وجلس على صخرة هنالك وطفق يقبله و يضمه الى صدره وقد نسى وقتئذ شقاءه وتعاسته،نسى انه طريد شريد، لامأوى له يدفع عنه قرة البرد نسى أنه جائع ليس لديه لقمة يسكت بها صوت معدته الصارخ ، وصاح وهو يبكى تأثراً

لقد عادت الى سلوتى الوحيدة ، لقد عاد الى مؤنسى فى وحدتى . . . فالحيوان أشد حفظا للمعروف من الانسان .

جورجى نيقولاوس